



الحضور المذهبي في بلاد المغرب الأوسط

من إشكالات التدافع التاريخي إلى ضرورات التعايش الاجتماعي.

*The Doctrinal Presence in the Middle Maghreb  
From the Problems of the Historical Scramble to the Necessities  
of Social Coexistence.*

بشير يزير

جامعة يحي فارس - المدينة

bachiryazir1991@gmail.com

تاريخ القبول: 2023 / 09 / 04

تاريخ الاستلام: 2023 / 04 / 08

**Abstract:**

*The diversity of Islamic jurisprudence and the diversity of the Islamic faith due to the diversity of the sources of the ideas of scholars and because of the political conditions that controlled these leaders , We note that the plurality of sects and groups was never always a negative case, but those groups and groups were intellectual and scientific institutions , It made it easier for these leaders to implement their ideas and principles on the ground and changed the course of the entire history of the nation. Keywords: Doctrines; groups ; Nation ; coexistence ; History.*

المؤلف المرسل: بشير يزير

البريد الإلكتروني: bachiryazir1991@gmail.com

## الملخص:

كان لابد للفقهاء الإسلاميين والعقائد الإسلامية أن تتعدد وتنوع وفقا لمشارب العلماء و الفقهاء والمفكرين ومرجعياتهم الفكرية، ووفقا للمحيط السياسي الذي يبدوا أنه تحكّم وإلى حدّ بعيد في تأسيس مبادئها وأدبياتها، وما يلاحظ أنّ تعدد المذاهب والجماعات الفقهية والعقدية لم يكن حالة سلبية في غالب الأحيان و إنّما شكّل وعاء حاويا للأفكار والقيم و التعاليم بما أتاح لهؤلاء الأعلام أن يترجموا أفكارهم على أرض الواقع سلبا وإيجابا في فترات متعاقبة في مسارات التاريخ الكلي للأمة.

الكلمات المفتاحية: المذاهب؛ الفرق؛ الأمة؛ التاريخ؛ التعايش.

## 1. مقدمة:

عادت الدّراسات التاريخية والأبحاث الاجتماعية لتبحث في القضايا المجتمعية ذات الطابع الديني لتفرض نفسها على أطر البحث العلمي من جديد، ليس بقراءات جديدة تعتمد على المصدر و الوثيقة الجديدة و إنّما بمراعاة ما تفرضه حتميات و تحديات الزمان و المكان على الصعيد الدولي أمنيا و سياسيا و ثقافيا، فقد بات من المسلم أنّ مسألة الأمن الفكري و التاريخي و الديني لا تقلّ أهمية عن الأمن السياسي و العسكري، و ذلك في ظل استهداف القوى الدولية الكبرى لبنيات المجتمعات و تكوينها الفكري و الثقافي المرتبط أساسا بخصوصياتها الحضارية المكونة لذاتها.

إنّ المعتقد المجتمعي لم يكن بالأساس وليد التأطير السياسي للدولة لمجتمعها و إنّما هو في الأصل عملية تراكمية لمسارات المجتمع عبر تاريخ طويل موغل في العمق، و حافل بحالات التداخل و التدافع و التنافس بين مذاهب الدين و أنساق الفكر ونتاجات الثقافة و حركات التأليف من النخب العاملة و تأطيرها لحملة العلم طيلة فترات التاريخ و حقه.



و على هذا الأساس يمكن أن يعود الباحث لمحاولة سبر أغوار السياق التاريخي و المكون الفكري لمختلف الحركات المذهبية الفقهية و العقدية التي عمّرت و سادت في المعترك الفكري و الديني للمجتمع، و ذلك عبر الوقوف على مسارات النشأة و التكوين أولاً و للتعرف على محددات الاختلاف و التدافع من جهة و لمعرفة كيف تكونت هوامش الاتفاق و التعايش السليم الخادم للتنوع المجتمعي و الاستقرار السياسي الذي يخدم عبرها عملية البناء الحضاري للأمة.

و إذا كانت تلك المذاهب الفقهية و العقدية قد نشأت أساسا في بلاد المشرق الإسلامي موطن بدايات التأطير السياسي و الديني للدولة فإنّ بلاد المغرب كانت الفضاء الجغرافي . و عبر ظروف تاريخية معينة. موطن التطبيق العملي و الواقعي لأفكار و مبادئ تلك التيارات، فما الذي قدمته لإنسان بلاد المغرب؟ و هل ساهمت في توجيه رقيه الفكري بما يتوافق مع الأهداف السامية للدين؟ و كيف تكونت الصورة الأخيرة للمذاهب السائدة اليوم؟ و هل نجحت في خلق الاستقرار الفكري و المذهبي للمجتمع بما يجعله متكاثفا في مواجهة التحديات الحضارية التي تواجهه الساعة؟

## 2. المذاهب الفقهية و العقدية كأوعية لسلطة الدول و الإمارات:

لم تكن الفرق و الجماعات الإسلامية بمنأى عن الحياة السياسية و تجاذباتها و تدافع و صراع نخمها و قبائلها النافذة و أسرها الكبرى على الحكم، فالخليفة أو الأمير كان يبحث دائما عن مرجعية تأسيسية لنظام حكمه يكتسب بها الشرعية و يضمن بها ديمومة الغطاء الديني لمنظومة حكمه الذي سيحيي بيضة حكمه و يسوّق لمنطقه

السياسي، وهذا النزوع هو الذي زاد من تطور أشكال الاختلاف المذهبي بين تلك الفرق والجماعات والمذاهب طيلة فترات التاريخ المتعاقبة وهو الذي يفسر في الوقت نفسه نشوء إمارات وسقوط أخرى على أعقاب سابقتها في تنافس مشحون بالأفكار والرؤى والمعتقدات المختلفة.

## 1.2 . نشوء الحركات المذهبية في بلاد المشرق « الأسباب والتداعيات »:

إذا كان ظهور الفرق الإسلامية متزامنا مع الأحداث الكبرى التي اجتاحت العالم الإسلامي نهاية عصر الراشدين فإنّ اكتمال مدارسها وتكوّن مبادئها النهائية سيتزامن مع سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية في المشرق الإسلامي، فالمذاهب العقدية التي نشأت لم تكن أوعية للفكر ونواة لمؤسسات سياسية فيما بعد فحسب بل كانت مؤسسات تحتوي إلى جانب ذلك التشريع والاجتهاد الفقهي، و تحاول أن تمنح منحى المذاهب الفقهية الكبرى المعروفة سواء منها التي بقيت إلى يومنا هذا أو التي زالت و اندثرت من الحياة الفقهية و التشريعية للأمة.

إنّ نشوء الحركات المذهبية في بلاد المشرق يعود إلى أسباب عميقة و متباينة تفاعلت فيما بينها يمكن لنا أن نحصرها في الآتي:

### 1.1.1 الظروف التاريخية:

تزامن نشوء المذاهب الفقهية و العقدية مع استحواذ الأمويين على الحكم بعد حادثة الفتنة الكبرى لما نأت جماعات من الشيعة و الخوارج بنفسها تترقب فرصا سانحة للثورة كتعبير سياسي رافض في معظمه للوضع الجديد، هذا الوضع الذي لا يتوافق مع رؤاها و اختياراتها في الحكم، و سرعان ما سيتحول هذا الموقف السياسي إلى اختيار عقدي لتلك الجماعات سيكون اختيار الحاكم فيه ركننا ركيننا من أركان العقيدة خاصة في زمن تلك الأحداث الكبرى، و موردا تأسيسيا للمنظومة الفكرية و



الفقهية لها ، يتحكم في اختياراتها وتوجهاتها في أرض الواقع ويحدد مستقبلها السياسي الذي يتضمن مبادئ عقدية تختلف فيها مع الفرق والجماعات الأخرى، في المبدأ وفي التطبيق، و سيؤدي إلى الانخراط في عمل سياسي يؤسس دولا ويشكل لها مرجعياتها السياسية والفكرية ويكون سببا في زوال إمارات من مسرح الأحداث طيلة العصر الوسيط من حياة الأمة ليتواصل هذا المنحى بدرجة أقل إلى غاية يوم الناس هذا.

إلا أنّ تلك الجماعات كالخوارج مثلا ستزداد تناقضاتها مع محيطها السياسي، لتتطور إلى كيانات اجتماعية لها خصوصياتها المميزة لها عن غيرها، بل ستتحول إلى جماعة رافضة للأوضاع كلّها وليس السياسية منها فقط، وسيرى المتتبع لها كيف ستتحول تلك الجماعة إلى مؤسسة فكرية لها مصادرها الفقهية والتراثية التي تحتوي فكريا تأصليا خاصا بها في مجالات الاقتصاد والحياة الاجتماعية وما يتبعها من علاقات مع المحيط الاجتماعي (إسماعيل 1997 ، 20)، وهو الذي تمكنت تلك الجماعة من تطبيقه على أرض الواقع لما أتيحت لها أول سانحة في بلاد المغرب الإسلامي في القرن الثاني من الهجرة/م.

### 1.1.2 حركة العلوم والترجمة في الحضارة الإسلامية:

لقد تطورت الحركة العلمية ونمت بشكل لافت في القرن الثاني للهجرة / م، فبرزت حركة الفلسفة عبر الترجمة من اليونانية والفارسية والهندية إلى اللغة العربية، ولعب الموالي في ذلك دورا لافتا وكان منهم كبار العلماء والفقهاء والمحدثين والقراء، ولن تجد علما من العلوم إلا وله أصوله في ذلك (بوعقادة،

المذاهب الفقهية المندثرة و أثرها في التشريع الإسلامي في القرنين الثاني و الثالث لهجرة 8 و 9 للميلاد، (رسالة ماجستير) (2003، ص 68) آليات البحث و الاستنباط فزادت الخصوصيات المرجعية لكل فرقة و لكل مذهب.

على أنّ تلك العلوم العقلية الوافدة إلى منظومة الفكر الإسلامي و رغم تطورها ضمن أنساق الفكر العربي الإسلامي و رغم اصطباغها بألوانه و رغم خدماتها الدفاعية للعلوم الإسلامية و الشرعية لن تكون محلّ رضا من كل الفقهاء و العلماء، الذين كانوا ينادون دائما بالاكْتفاء بالعلوم النقلية كوعاء للدين و للعلوم المرتبطة به، فقد كانوا ينظرون بعين الريبة و التوجّس لها، لما تحمله من معارف عقلية تجريدية قد تتصادم حسب رؤاهم مع روح الدين و جوهر العقيدة و التوحيد و مقدساتهما، و ستكون هذه الرؤى الصارمة أحد أهمّ أسباب الخلاف بين التيارات النقلية الأثري و تيارات الفكر العقلاني التنويري الذي سيبالغ في منح الثقة للعقل المسلم في إثبات عقائده و التدليل عليها، و الدفاع عنها أمام الفلسفات و الأديان الأخرى خاصة عند المعتزلة و الأشاعرة و الماتوريدية.

إنّ انخراط أعلام الفكر و العقيدة من الذين تشرّبوا الفكر الفلسفي في تلك الفرق و المذاهب العقدية سيزيد حتما من الفروق الفكرية و من تعدد الآليات المنهجية في البحث في الفقه و العقيدة و في التراث كلّه، مع ما يطرأ من تجاذبات سياسية بين أتباع تلك الفرق، فتزداد الفروق بين مرجعياتها الفكرية و تزداد حدّة الصراع بينها خاصة عندما ينخرط الأتباع في تلك الصراعات التي قد تؤطرها زعاماتها العلمية فيكون الخلاف علميا منهجيا، و قد تؤطرها زعاماتها السياسية ليتحوّل من بعدها الصراع إلى صراع على الحكم و يكون التصادم العسكري المفتت لوحدّة الدولة و الأمة.



### 3.1.1 الرقعة الجغرافية والمكوّن البشري:

لعبت الجغرافيا و شكل السطح دورا خطيرا في انتقال الأفكار و الأديان منذ خلق الإنسان و تكوّن الجماعات البشرية و منذ طموح النفس البشرية للعبادة و الرقي الروحي سلبا و إيجابا ، فتواصل الامتداد الجغرافي و سهولة انتقال و عبور الجماعات سيسهل يقينا من انتقال العبادات و الطقوس بين الشعوب و من تبادلها لها فيما بينها، كما أنّ وعورة السطح ستصعب من مهام نقل تلك الأفكار و السلوكيات الجمعية و تزيد من انزواء الجماعات البشرية و محافظتها على خصوصياتها الثقافية خاصة ما يتعلّق بالجانب الوجداني فيها.

و هو الذي حدث لما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية بفعل الفتوحات الكبرى التي تواصلت إلى غاية منتصف القرن الثالث للهجرة /9 م فزادت بفعل حركة الفتوح فسيفساء الشعوب المكونة للأمة تنوعا و ثراء بما تحمله من زخم ثقافي من العادات و التقاليد و الأفكار و القيم الوافدة ، و بفعل عناية الخلفاء و الأمراء الخاصة بالعلوم تفتح العقل الإسلامي و زادت مشاركته (إسماعيل 1997، 67)، و حوى النظم السابقة التي أثرت أدبياتها المنظومة الفكرية للفرد و الجماعة، و زادت تلك الأفكار من تأطير الجماعات و الفرق و المذاهب بما يجعل التباين بينها جليا عند محاولاتها تطبيق أفكارها على أرض الواقع.

لقد وقّعت الجغرافيا في أن تساعد بعض الجماعات و الفرق في أن تطبّق أفكارها على أرض الواقع بعيدا عن تناول أنظمة الحكم و منظومتها الأمنية و العسكرية، بل و استطاعت أن تؤسس دولا على أطراف الخلافة العباسية تختلف معها في

مرجعيات الفكر السياسي و في المنحى العقدي و إن كانت تتسعى كلّها بدول الإسلام و إمارات المؤمنين.

#### 4.1.1 طبيعة المكون الفقهي والعقدي للدين الإسلامي:

اشتمل الدين الإسلامي على كلّ ما يهّم الإنسان ، و انطوت تشريعاته على كل ما يؤسس لحياة الفرد و الجماعة، و هو ما يعبر عنه بصفة الشمولية التي تميّزت بها الحضارة الإسلامية عن مثيلاتها، و لم تكتمل صفة الشمولية هذه إلا عندما قبلت حضارتنا خاصية الاختلاف في التفكير ، على الأقل في القضايا الفرعية التي تكوّن هذا الدين ، فانفتح العقل المسلم على الآخر كان يمثل الصفة الغالبة في نمط التأسيس لمكوّنه بمرونة سلسلة تؤسس لتنوّع ثقافي دون المساس بالكليات و الأصول المؤسّسة لهذا الدين، و هذه المرونة هي التي أدّت إلى تنوّع أوعية الفكر الممثلة في الجماعات العقدية و المذاهب الفقهية و التيارات الفكرية.

لقد اجتمعت هذه الأسباب الرئيسية و أسباب أخرى لترسم خارطة المذاهب الإسلامية الكبرى، و لعل مشكلة التصور المذهبي للسلطة كانت هي الدافع الرئيس لنشوء المذاهب و الفرق الكبرى السنة و الشيعة و الخوارج، و التي ظلّت تمثل المكون الرئيس للاختلاف و التنوّع العقدي الذي تراوح ما بين حالات السلم و الاختلاف الذي يحترم التنوّع حيناً، و بين حالات الصراع و التدافع و التنافس الذي يميز حالات أخرى، و كانت بلاد المشرق المنشأ الأوّل للمرحلة التأسيسية لها و مهد تأسيس أفكارها و أصولها النابعة من نزوع أعلامها الذين باسروا عملية التفاعل مع تلك الأحداث الكبرى للتاريخ الإسلامي.

فالخوارج إحدى أكبر الفرق الإسلامية كان انشقاقهم على عهد علي بن أبي طالب 23ق هـ – 40 هـ / 600 – 661 م في فترة باكرة من التاريخ الإسلامي إبان صراعه مع



معاوية ابن أبي سفيان 20 ق هـ - 60 هـ / 603 - 680 م نقطة تحول في الماهية و الطبيعة التي أضيفت على الصراعات التي حفلت بها حياة العرب و المسلمين ، فهم لم يقفوا بخلافهم مع خصومهم عند الحياة السياسية بل أضفوا عليها طابعا من الدين، و ذلك عندما زعموا بأنهم هم المؤمنون و أنّ من عاداهم قد مرق من الدين، و زاد الأمر تعقيدا عندما استخدم خصومهم ذات السلاح فأصبحت سائر فرق الإسلام تقريبا تضي على مبادئها السياسية و آرائها الفكرية و الاجتماعية صبغة من الدين و عقائده انسياقا مع تيار سلطان العقيدة الدينية الجارفة حيناً، و تملّقا للعامة و استجلابا لتأييدها في أغلب الأحيان، فانطبعت خلافات الساحة الإسلامية بالطابع الديني عندما انتقل الجميع بما هو سياسي إلى ساحة ما هو دين، و هذا التشدد الذي نشأ مع نشأة فرقة الخوارج لازال يعاني منه العقل العربي المسلم و يجاهد ضده إلى الآن، هذا بالرغم أنّ النشأة الأولى لفرقة الخوارج كانت على يد كوكبة من القراء الذين أضفوا إلى حفظهم زهدا و ورعا و تنسكا، و هؤلاء القراء كانوا علماء الأئمة قبل أن تعرف الحياة الفكرية الفقه و الفقهاء، و ما يلاحظ أنّ هؤلاء القراء لم يبلغ بهم العلم بعد إلى المدى الذي يجعلهم يغوصون إلى ما وراء ظواهر الآيات و تلك سلبية لادب و أن تقعد بأهلها عن القدرة عن السياحة في بحر السياسة و السياسيين (عمارة 1998 ، 9-12).

أما الشيعة فقد مثلت ثاني فرقة تنشق عن عموم المسلمين حتى مثلت مساحة عريضة من الأتباع و الأعلام و الشخصيات، و إذا كان التشيع و الشيعة بمعنى الميل إلى إمارة علي بن أبي طالب للمؤمنين و الطموح إلى تقديمه و تفضيله على غيره من

الصحابة خاصة عند اختلافه مع معاوية بن أبي سفيان (خلدون 2001، ص 246)، فإنّ مراجع للشيعة تريد أن تؤرّخ لنشوء فرقهم في مرحلة باكرة من صدر الإسلام عند وفاة الرسول محمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عندما اجتمع قادة الأنصار و نفر من المهاجرين في سقيفة بني ساعدة (البخاري، صحيح البخاري 2002، ص 6) للتداول فيمن يخلف الرسول في الولاية على الدولة، وهو الإجماع الذي تمخّض عن البيعة لأبي بكر الصديق - رضي الله عنه - 51 ق هـ - 13 هـ / 573 - 634 م بالخلافة على دولة العرب المسلمين، إذ يرى و يصرّ مؤرّخو الشيعة أنّ النفر من الصحابة الذين رفضوا ما تمخّض عنه اجتماع السقيفة و قالوا بأحقّية علي بن أبي طالب للخلافة كانوا هم نواة الشيعة كفرقة و طليعة للمتشيّعين لأهل بيت الرسول - صلى الله عليه و سلّم - و تجمع على هذا الرأي مصادر الشيعة و تتفق فيه فرقهم و يتفق معهم في ذلك علماء الاستشراق (عمارة 1998، 200).

و مثل سابقهم الخوارج لم يكن الذي يميّز الشيعة عن غيرهم المذهب الفقهي فحسب، ذلك أنّ اجتهادات المسلمين في الفقه و اختلافاتهم في تصور الكون و الذات الإلهية لم يكن العمل الرئيس ليصنع بينهم الحواجز ، و لم يقسم لهم الصفوف و إنّما كانت السياسة و الصراعات على السلطة و الدولة هي بؤرة الخلاف الجذري العميق و مصدر الانقسامات التي استعصت على الاتحاد و الائتنام، و التاريخ شاهد على أن المسلمين لم يجردوا سيفا و لم يريقوا دما لخلاف في الدين، و لكنهم جردوا كل السيوف و أراقوا أنهار الدماء لخلافات سياسية و صراعات على السلطة و السلطان، و هو شاهد كذلك على أنّ الخلافات السياسية التي استعصت على التجاوز حتى مرور القرون و تبدّل الأجيال كانت تلك التي صبغها أصحابها و أطراف



النزاع فيها بصبغة الدين، فانتقلت من النطاق المحلي المؤقت إلى الإطار الأبدي الدائم و غدت ثوابت بعد أن كانت من المتغيرات.

إنّ ظهور الفرق الإسلامية الكبرى السنة و الشيعة و الخوارج كان نتاج عجز السياسة على تصور الخروج برؤية موحّدة لمسألة الحكم و الانتقال، إذ أنّ كل طرف يحاول التمسك بالحقيقة المقدسة النابعة من الإيمان المؤسس على النص القرآني و الحديثي، و لما آمن كل طرف إيمان اليقين بمبادئه و لم يفسح المجال للأطراف الأخرى حدث التدافع و التصادم، و أدّى ذلك إلى صراع محتدم و شرخ عميق في المكون الفكري للأمة، و تشتّت الجهود و ضاعت مقدرات الأمة في تلك الصراعات و التناقضات و زادت الفروقات الفكرية بين تلك الفرق إلى حدّ التناقض لصالح القوى الأجنبية المعادية للأمة.

## 2.2 التنوع المذهبي في بلاد المغرب «التأثرو والتأثير»:

إذا كانت بلاد المشرق هي المنشأ الأول للفرق و الجماعات و المذاهب وفقا للظروف و المسببات التي وقفنا عليها، فإنّ بلاد المغرب كانت المجال الخصب للتطبيق الفعلي لأفكار و معتقدات و رؤى تلك المذاهب و الفرق و الجماعات، فقد توفرت ظروف تاريخية معينة شكلت حتميات جاذبة لتلك القوى الفكرية و العقدية و المذهبية حتى تمكنت من تطبيق منهجها النظري، و نجحت في تحويله إلى فعل حضاري مشهود، يحمل سلبيات الفرقة و الجماعة و مع ذلك تمكن وإلى حد بعيد من الاستمرار طويلا في ركب الحضارة و المدنية، و تشكلت دول و إمارات عمّرت طويلا عبر فعلها الحضاري ثم انتهت وفقا للسنن الكونية في تعاقب أنظمة الحكم و توالي

السيرورة التاريخية للدولة والإمبراطوريات، ويمكن أن نجمل أسباب لجوء تلك الفرق والمذاهب إلى بلاد المغرب في الآتي:

## 1.2 قوة الخلافتين الأموية والعباسية :

استلم الأمويون مقاليد الحكم في فترة عصيبة كانت تعيشها الدولة الإسلامية نهاية عصر الراشدين، فأحداث الفتنة الكبرى كانت قد ألفت بضلالها على واقع ووجدان المسلمين، في ظل غياب رؤية جامعة لمشكلة الخلافة والإمارة التي كانت منشأ الخلاف الرئيس، وإذا كانت تلك المذاهب والفرق والجماعات قد رسمت لنفسها أفكارا ومبادئ مخالفة للقوى التي استلمت الحكم الممثلة في الأمويين ثم العباسيين فإن السلطة الناشئة كانت قد حازت أسباب القوة باصطفاف غالبية المسلمين ومبايعتهم للخلافة الأموية التي أعقبت خلافة الراشدين، سواء اقتناعا من عامة الناس وخاصتهم أو عبر الاستسلام للأمر الواقع وإيثار السلم والأمن وحفظ الأنفس والممتلكات، وهو الذي أكسب الخلافتين الأموية والعباسية القوة عبر سياسة الأمر الواقع التي نجحت في البعث بأمور الدولة نحو الاستقرار المؤدّي إلى الديمومة والتواصل.

لقد أحرز الأمويون ومن بعدهم العباسيون رضا الناس جراء تمكنهم من ضبط أمور الدولة وتأسيس الدواوين وحفظ الأمن وتواصل حركة الفتوح في المشرق والمغرب، فظهرت الدولة بمظهر يبين عن قوة تستطيع أن تقف في وجه الخصوم عبر القوة العسكرية حيناً وعبر سجلالات الفكر والحوار أحياناً، وعبر المداراة والاحتواء أحياناً أخرى، وهو ما أكسب الدولة قوة رهيبية لم يتح لخصومها القليل منها، هذا إذا وضعنا في الحسبان أيضاً استحواذ الدولة على موارد المال بقوة الشرع وبقوة المنطق السياسي.



إنّ قوّة دولة الخلافة في المشرق كانت صمّام أمان لوجود الدين كلّه طيلة الفترة الوسيطة، فمهما تصارعت الفرق و الجماعات و المذاهب فإن وجود القوة السياسية الجامعة الممثلة في مؤسّسة الخلافة سيكون له الأثر البالغ في الحفاظ على الدين كمكون رئيس للحياة و جامع للأمة و حامي لبيضتها و كمحرك رئيس لدفاعها عن حدودها و مقدّساتها ووجودها ككل، يشهد على ذلك عدم استهداف الدول التي نشأت في بلاد المغرب لإسقاط الخلافة الإسلامية في المشرق و عدم الدخول معها في حروب كبرى مدمرة لوعيمهم بمقام الخلافة و هيبتها و رفعة مكانها لدى عموم المسلمين.

## 2.2 الحركات المناوئة للدولة:

استغلت الفرق الإسلامية من الشيعة و الخوارج استحواذ بني أمية على مقدّرات السلطة، و حاولوا جلب الناقمين على السلطة جراء سياساتها المالية خاصة في أمصار المغرب، و استطاعوا أن يستغلّوا حنق الساكنة على ولاة الدولة و استئثارهم بالغنائم و سائر مداخيل الدولة، و هو عامل يستهوي نفوس الناس عندما يرون تجاوزات عمال الدولة في الجباية ليجعلوها دولة بينهم هم و أقاربهم و بني عمومهم (عميرة 2014، 216-217)، و هو الذي كان سببا مباشرا لثورات البربر في بلاد المغرب التي دامت إلى غاية منتصف القرن الثاني الهجري / 8م، و كانت سببا مباشرا لاستقبال الساكنة للرسّتميين في بلاد المغرب الأوسط، و الأدارسة العلويين في بلاد المغرب الأقصى و مكنتهم من تأسيس إماراتهم و دولهم.

إنّ بنية المجتمعات و نزوعها لما تتطلبه مقتضيات عيشها و متطلّبات حياتها الاجتماعية يعتبر فاعلا مهما في حركية التاريخ، و هو الذي الإطار الذي سنضع فيه تحرّكات العامة في بلاد المغرب التي كانت منتظمة داخل أوعية قبائلها البربرية القوية و اهتبلت الفرصة الموازية لأيّ داع للثورة و التغيير على أمل نيل المطالب و الحقوق و المزايا ليتحوّل نزوعها المادّي هذا و إلى جانب عوامل أخرى إلى فرصة سانحة لعامل الزعامات الفردية التي تبحث لها عن مناخ يتوافق مع ما تتطلّع إليه و يضمن لها الأرضية الصلبة لتطبيق مبادئها و تنفيذ رؤيتها للحكم السياسي كما تراه و تؤمن به.

### 3.2 المجال الجغرافي للدولة الإسلامية:

بلغت الدولة الإسلامية أوجّ اتساعها في عهد الخلفاء الأمويين فقاربت حدود الصين شرقا، و استحوذت على بلاد فارس و قضت على نفوذ الإمبراطورية البيزنطية في الشام و في مصر، و اكتسحت بلاد المغرب و بلغت إلى أقاصي بحري الروم و بحر الظلمات و ضمت مستعمرات الإمبراطورية البيزنطية في شمال إفريقيا و الأندلس، و غدت بذلك الإمبراطورية الإسلامية القوّة الكبرى في العالم الوسيط آنذاك، و رغم توقّر عامل القوّة الجغرافية إلى أنّه يحمل في حدّ ذاته مشكلة عميقة تتمثل في صعوبة إدارة أقاليم الدولة فكثرت الحركات الانفصالية في المشرق و المغرب، و استسهل الولاة شأن الاستقلال فوجدت الحركات المذهبية غايتها في أن تكون هي المرجعية الرئيس للدول و الإمارات المستقلة، مستفيدة من ضعف سلطان الدولة من جهة و مستغلة لطموح الولاة على الأمصار.

إذا كان من المسلم تاريخيا أنّ الدولة الأموية في الأندلس لم تتأسّس على أساس مذهبي طائفي أو عرقي مفتّت لوحدة المجتمع فإنّ غالبية الدول الأخرى التي انفصلت عن خلافة العباسيين فيما بعد قد تأسّست كلها على أساس مذهبي أو عقدي فكري،



تحوّل إلى طرح سياسي يؤسّس لمنظومة حكم جديدة أو يتضمّن أفكارا سياسية تغذي تلك الأنظمة الناشئة و توفّر لها المبرّرات الفقهية و الحماية الدينية اللازمة التي توفّر مبرّرات قيام تلك الكيانات في وجدان الأتباع في تلك الأقاليم.

#### 4.2. طبيعة المذاهب و الفرق الإسلامية:

كانت النظرة الإقصائية للأخر التي ميّزت المكون الفكري للشيعية و الخوارج سببا مباشرا لفشلها في جلب الأتباع و الأنصار و حشد الحشود و الجيوش، فالشيعية يرون بأنّ الخلافة و الإمامة لا بد أن تبقى في البيت العلوي كمبدأ لا يقبل النقاش أو التنازل و جعلوا هذا المبدأ معيارا للولاء أو العدا، و هي رؤية إقصائية للحكم العريض من رعايا الدولة الإسلامية ممّن لا يرون رؤيتهم و كذلك فعل الإباضية و الصفيرية من الخوارج الذين رأوا في مناشجزة الحكّام الأمويين و من بعدهم العباسيين أساس برنامجهم السياسي الذي تحوّل إلى رؤية عقديّة لم تجد لها مجالا خصبا إلّا في بلاد المغربين الأوسط و الأقصى.

إنّ تلك الرؤية الإقصائية التفتيتية هي التي سترسم حالات الأمن و السلم و هي التي ستحدّد سيمات و ملمح الخارطة التاريخية للدولة الإسلامية في مسار الأمم، و هي التي تحدّد أنساق الفكر و أشكاله في التراث العربي الإسلامي، فتراث الفرق الإسلامية الفقهي و العقدي و الفكري و إن كان يتّفق في عمومه في أصول الدين و في أركان الإسلام و الإيمان الكلية سيحمل الكثير من التناقض و التضارب و التضاد في قراءة النص القرآني و الحديثي و في قراءة سيرورة الأحداث الكبرى في الإسلام، و بقيت هذه السيمات لصيقة بفكر الجماعات و الفرق و تحدّد مساراتها و مسارات الكيانات

السياسية التي تتأسس عليها سلبا وإيجابا، فالدولة الفاطمية في بلاد المغرب كانت قد استخدمت حق أهل البيت في ميراث النبوة في حكم المسلمين و سادت في تلك البلاد ردحا من الزمن، لكن تناقضها مع المرجعية الفقهية المجتمعية للسكان عجل بتراجع المدّ الشيعي في بنية المجتمع و لم يبق له أثر البتة في بلاد المغرب بمجرد انتقال الخلفاء الفاطميين إلى مصر منتصف القرن الخامس الهجري / 11 م.

و على هذا الأساس يمكن لنا أن نفهم بأنّ فكر الفرق و المذاهب سيكون مرجعية مؤسّسة للدولة وفقا لظروف معيّنة و لعوامل متعدّدة، و قد ينجح فعلا في تأسيس تلك الدول و الإمارات حيننا من الزمن لكنّ الفكرة و المذهب و إذا لم تحمل خاصية الانفتاح في مكوّنها العقدي و في نسقها الفكري ستحوّل من مادّة جامعة رابطة للحمة الدولة إلى عامل تفتيت سيمهد لأيّ طوارئ خارجية تريد أن تستغلّ التناقض الحاصل داخل مؤسّساته الفقهية أو العقدية أو الفكرية التي كانت قد أضعفت بتناقضها مع الآخر الدولة و زادت ربما من حالات الصدام المجتمعي الذي سيتوق لأيّ تغيير يلوح في الأفق.

## 5.2 المكوّن البشري لبلاد المغرب :

إنّ ساكنة بلاد المغرب من البربر و الأفارقة كانوا قبل الإسلام ضحيّة جشع الاستعمار القديم الذي استغلّ مقدّرات الأرض و حرم إنسان هذا الإقليم حق بناء الحضارة المادية، إلّا وفق ما تتطلبه آلية الرومنة التي كان الاستعمار القديم قد انتهجها ليقضي على الخصوصيات الحضارية لشعب هذا الإقليم، لكنه فشل في تغيير القيم الأصيلة لهذا المجتمع و بقي متماسكا متحدا يتوجّس من أي دخيل على هذه الأرض إلى أن جاء الفتح الإسلامي لهذه الأقاليم وفقا لخطة استراتيجية اقتضتها



ضرورات اتساع الدولة و اقتضتها قبل ذلك طبيعة رسالة الإسلام إلى شعوب العالم القديم .

إنّ حبا لدين الإسلام قد نشأ في بلاد المغرب و كان وقود الحضارة المادية و مكونها الروحي الذي استقرّ نهاية القرن الأوّل الهجري/ 8 م، و انخرط ساكنة هذا الإقليم في عمارة الأرض و تأسيس القيم دون مماثلة و لا وجل و رغم رفضهم لبعض حالات التناقض الحاصل من تجاوزات بعض الولاة في تحصيل الجباية و المغارم إلا أنّ استقرار الدين في نفوس البربر كان منقطع النظير مقرنة بغيرهم من الشعوب التي تلقّت هذا الدين و هو الذي سيفسّر لنا سهولة استغلال ذوي النزعات السياسية العامة عبر امتطاء الفكرة الدينية المخلّصة التي ستنال حتما الترحيب و الطاعة و التوقير .

استغلت الحركات المذهبية حب البربر لآل بيت رسول الله . صلى الله عليه و سلم . و كرسوا فيهم روح الطاعة و الولاء المنقطع النظير للحاكم الذي ينتمي للبيت الشريف، و نجح الأدارسة في استمالة قبيلة أوربة البربرية التي كانت في منطقة وليلى بالمغرب الأقصى، كما نجح الإباضيون في المغرب الأوسط في استمالة قبائل البربر في تيمرت و شكلوا بها حلفا قويّا يناصر عبد الرحمان بن رستم الفارسي إلى أن مكنوه من تأسيس دولته التي سادت أكثر من قرنين من الزمان إلى أن قضى عليها الفاطميون الشيعة سنة 296هـ/ 908م.

3.2 . المذاهب العقدية في بلاد المغرب من الصراع إلى التعايش :

ينسب الإباضية إلى عبد الله بن أباض وهم أقلّ جماعات الخوارج غلوًا وأكثرهم اعتدالا وأقربها إلى فكر أهل السنة والجماعة، فعندهم أنّ كفر مرتكب الذنوب الكبائر هو كفر نعمة أي جحود نعمة وليس كفر شرك بالله، والإيمان عندهم هو جميع ما افترضه الله على خلقه ولم يقولوا مثل الأزارقة أنّ أطفال الكفار كفار مخلدون في النار، ولقد انقرضت هذه الفروع الخارجية وهدت مقالاتها جزءا من تراث الإسلام، ولم يبق من الخوارج سوى الإباضية الذين تزال لهم بقايا في أجزاء من الوطن العربي وشرقي إفريقيا وبالذات في عمان ومسقط على الخليج العربي، وفي أنحاء من المغرب العربي تونس والجزائر، وفي الجنوب الشرقي للقارة الإفريقية في زنجيبار، وهم ينكرون علاقاتهم بفكر الخوارج الغلاة بل ربما أنكر بعضهم آية صلات لمذهبيهم بمذهب الخوارج على الإطلاق (عمارة 1998، 28-29).

وقد استقبلت قبائل البربر في تيمرت عبد الرحمان بن رستم واستطاع أن ينال اتفاق ومبايعة القبائل المستقرة هناك على العدل والاستقامة، وقد ذكر ابن الصغير مؤرخ الإباضية المالكي أنّ القبائل اجتمعت واتفقت على أن تختار إماما لما «علمتم أنّه لا يقيم أمرنا إلا إمام نرجع إليه في أحكامنا وينصف مظلومنا و يقيم لنا صلاتنا ونؤدّي إليه زكاتنا و يقيم فينا فقبلوا أمرهم» (المالكي 1984، 25) وكان سبب اختيارهم له أنّه لم يكن من أهل قبيلة تحميه أو يستقوي بها على باقي القبائل الأخرى، «وهذا عبد الرحمان بن رستم لا قبيلة له يشرف بها ولا عشيرة له لها حمية» (المالكي 1984، 26)، وقد تطوّر مذهبهم وطوّعت الحياة وأحدثها أفكارهم حتى اقتربوا من مذاهب أهل السنة في الكثير من الأصول والمقالات.

وكان للبربر من فرع البرانس سبق في استقبال الحركات المذهبية بسبب الكثرة وسعة الانتشار، وكان قد ظهرت لهم محاولات مبكرة غايتها تكوين أنظمة سياسية



قومية قبل الإسلام و بعده، و قد أدركت قبائل كتامة و أوربة و صنهاجة و مصمودة و كتامة مجدا سياسيا عريضا في ظل الإسلام ، سواء لتكوين إمارات مستقلة أو بموالمتها للحركات السياسية المذهبية، و قد كانوا معروفين بحمهم لآل البيت حتى استقبلت قبيلة منهم كتامة البرنسية دعوة الفاطميين نهاية القرن الثالث الهجري و مكنتهم من إقامة دولتهم على أنقاض الدولة الرستمية الإباضية سنة 296هـ / 908 م (لقبال 1986، 67).

و لم يقع عداء بين المذهبين الفاطمي و المالكي في بداية تأسيس دولة الفاطميين في بلاد المغرب، و في هذا الصدد يشير الأستاذ موسى لقبال بأنه لا يستبعد أن يكون مذهب مالك بن أنس إمام دار الهجرة، و هو المذهب الذي يأخذ به كافة مسلمي بلاد المغرب باستثناء الإباضية و الصفرية أحد العوامل التي كرّست محبة و تقديس سكان بلاد المغرب لآل البيت العلوي، و سر ذلك على ما يبدو يفهم على ضوء معرفة صلة مالك بأشهر الأئمة الإسماعيلية جعفر بن محمد الباقر، فقد اخذ مالك عنه و تأثر به و اعتبر من أقرب المقربين إليه ، و من المؤيدين لنشاط العلويين و لنضالهم من أجل حقهم الشرعي حتى امتحن في سبيل ذلك على يد أبي جعفر المنصور، و شبيه بهذا الوضع ما لقيه فيما بعد إدريس بن عبد الله في بيئة المغرب الأقصى من تأييد و مساندة أبي ليلى إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي، لأنه كان يرى رأي المعتزلة و هؤلاء كانت صلتهم بالزيدية قوية عن طريق تأثر زيد بن علي إمام الزيدية برئيس المعتزلة و عالمها واصل بن عطاء ت 191 هـ / 797 م (لقبال 1986، 206).

ورغم وجود هذه الفسيفساء المذهبية إلا أنّ المذهب المالكي كان قد ساد في بلاد المغرب، و عرف له انتشارا كثيفا خاصة من منتصف القرن الثالث للهجرة /10م حيث بدأ التطبيق الفعلي لأصول المذهب و كتب « أهل إفريقية على المدونة...مثل ابن يونس أبي الحسن اللّخمي القيرواني و ابن محرز التونسي و ابن بشير و أمثالهم، و جمع ابن أبي زيد القيرواني جميع ما في الأمهات من المسائل و الخلاف و الأقوال في كتاب النوادر» (خلدون، 2001، 570).

و كان الفقه الإباضي قد بلغ هو الآخر أوجّ تطوره بداية القرن السابع الهجري و ذلك بتطور آليات البحث فيه، و تبدّل متطلّبات الحياة، و ما يتبعها من علاقات و تعاملات في البيع و الشراء، حتّى أن مصادر الفقه لديهم أفادت بأنّ « العزّاب اجتمعوا أيام تجديديت فأجروا بينهم ثلاثمائة مسألة من الرّخص» في يوم واحد، مما يدلّ على أنّ حركة منقطعة النّظير كانت موازية لما يفرضه الواقع الاجتماعي، و لما تفرزه التعاملات المالية و التجارية و الخدميّة على الفقهاء و المجتهدين و أرباب الفكر و القلم (يزير، 2019، ص 237).

#### 4. الخاتمة:

كانت بلاد المغرب فضاء رحبا لمختلف المذاهب الفقهية و العقدية حتّمت عليها الظروف التاريخية أن تكون كذلك، و قد استطاع إنسان هذا الإقليم أن يتكيّف مع الوضع التاريخي الطارئ وفقا لما يستجيب لتطلّعاته، فلم يكن بذلك انخراطه في تبني تلك الحركات المذهبية إهدار للوقت و الجهد و تفريطا في الفعل الحضاري بشقيه الروحي و المادي.

انخرطت قبائل بلاد المغرب عموما و قبائل بلاد المغرب الأوسط « الجزائر» على وجه الخصوص في تبني تلك الحركات المذهبية، نظرا لسبقها في تجارب سياسية



سابقة كقبائل أوربة وكتامة و مصمودة و كتامة و صنهاجة الشمال التي تبنت الحركات الإباضية و الفاطمية و الموحدية، و شكلت لتلك الحركات الوعاء البشري و القوة المادية الفاعلة المؤثرة في حركية التاريخ و الحضارة، و استطاعت أن تشارك في تأسيس منظومة فقهية و عقديّة و قيمية عبر خواصّها المميزة لها.

اندثرت و زالت بعض المذاهب العقديّة و الفقهية كالفاطمية العبيدية، و الموحدية و الصفرية و بقيت أخرى كالإباضية على ما تقتضيه سنن التاريخ و حتميات البقاء و مسببات الزوال، و استطاع الإباضيون أن يحافظوا على هامش مريح في التعامل المعيشي الاجتماعي، و الحوار المذهبي و الفكري البناء بينهم و بين المالكية مذهب غالبية ساكنة هذا الإقليم.

لقد حافظت المذاهب العقديّة و الفقهية على اللحمة الاجتماعية للساكنة و انتقلت بهم رويدا رويدا و عبر مسارات تاريخية متعاقبة من دولة القبيلة و المذهب نحو الاندماج الكلي في الدولة الواحدة، الدولة التي تحمي الجميع و تقبل بأن تتأسس خصوصياتها الحضارية و الثقافية على أساس التنوع الثقافي الذي يشترك في الارتباط بكليتها الحضارية الواحدة.

إنّ البحث في مجالات التأسيس العقدي و الفكري للأمة يسهل للنخب العاملة استدعاء مفاهيم و أطر فكرية خادمة للقيم المعاصرة، و موجّهة لبوصلة الثقافة الوطنية بما يخدم التوجّه العام للإقلاع الحضاري للأمة، و يحمي الدولة و المجتمع في الوقت نفسه من استهداف مقومات حضارته التي تهددها أخطار العولمة الثقافية

في ظلّ سيادة عالم الاتصال الوسائطي الحر إعلاميا وثقافيا، و سيادة الاقتصاديات القوية في العالم و تغوّلها.

#### 5. قائمة المراجع:

- إسماعيل محمود، الحركات السرية في الإسلام، سينا للنشر، القاهرة، مصر، 1997.
- البخاري محمد بن اسماعيل، صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق، سوريا، 2002.
- ابن الصغير المالكي، أخبار الأئمة الرستميين ، تح: ابراهيم بحاز، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1984.
- بوعقادة عبد القادر، المذاهب الفقهية المندثرة وأثرها في التشريع الإسلامي في القرنين الثاني والثالث للهجرة 8و9 للميلاد، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية، جامعة الجزائر 2، 2002/ 2003.
- ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة ، تح: خليل شحاذة و سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2001.
- عمارة محمد، تيارات الفكر الإسلامي، دار الشروق، القاهرة، مصر ، 1998.
- بن عميرة محمد، الفتح الإسلامي لبلاد المغرب في كتابات المؤرخين الفرنسيين، الدار الوطنية للكتاب، دراية، الجزائر، 2014.
- لقبال موسى، دوركتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1986.
- يزير بشير، الحركة الاقتصادية في ريف وبادية المغرب الأوسط وآثارها الاجتماعية في العصر الوسيط ق10.7هـ/ 13. 16 م، أطروحة دكتوراه العلوم في التاريخ الوسيط، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر 2، 2018 / 2019.